

العقلانية المؤسسية عند كارل مانهايم

الباحث: معارك ناصر

إشراف: أ.د. مذبح لخضر

قسم الفلسفة، جامعة -قسنطينة 2- عبد الحميد مهري،

Abstract

The aim of this article is to examine the Rational institutes concept as elaborated by Karl Mannheim's theory of total ideology. He defines the important fields and transferred in order to enrich his contemporary epistemological projects. Firstly, he created the social system as a concept that equals than Rational institutes. He distinguishes his approach on Ideology and utopia by an exact differentiation between two kinds of Ideology: the first is a partial concept of ideology, the second is a total concept of ideology while he guarantees the transition from total ideology to rational institutes. Finally, he argue that the sociology of knowledge defines the total ideology as Rational institutes.

Keywords: Rational institutes, total ideology, social system, sociology of knowledge, society, individual, interaction, Utopia.

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى فحص مفهوم العقلانية المؤسسية كما تقيمها نظرية الإيديولوجيا الكلية المانهايمية معرّفاً أهم الحقول ومحوّلاً لها بغية إثراء مشروعها الاستيمولوجي المعاصر، بادءاً بإبداع نظام اجتماعي كمفهوم يكافئ مفهوم العقلانية المؤسسية، يميز مقاربتة حول الإيديولوجيا واليوتوبيا بواسطة تفرقة دقيقة بين نوعين من الإيديولوجيا: الأول هو المفهوم الجزئي للإيديولوجيا، الثاني هو المفهوم الكلي للإيديولوجيا وتفسيره للتفاعل المتبادل بينهما يضمن الانتقال من الإيديولوجيا الكلية إلى العقلانية المؤسسية. مبرهننا في الأخير أن علم الاجتماع المعرفي يعرف الإيديولوجيا الكلية بوصفها عقلانية مؤسسية.

الكلمات المفتاحية: العقلانية

المؤسسية، الإيديولوجيا الكلية، النظام الاجتماعي، علم الاجتماع المعرفي، المجتمع، الفرد، التفاعلية، اليوتوبيا.

مقدمة:

تعتبر الايديولوجيا الكلية من الركائز التي لا يمكن الاستغناء عنها في أبحاث كارل مانهايم **Karl Mannheim** (1893-1947) خصوصا إذا تعلق الأمر بعلم الاجتماع المعرفي الذي يهتم بدراسة بنية الفكر الاجتماعي وأصوله، والذي حدد أسسه في كتابه "الأيديولوجيا واليوتوبيا مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة"، حيث تشكل جدلية الايديولوجيا واليوتوبيا لب المعرفة الاجتماعية التي يحاول مانهايم معالجتها ضمن علم الاجتماع المعرفي ، مستخلصا بذلك معناهما الكلي الذي ينتهي كأيديولوجيا كلية ضمن سياق عقلائي مؤسسي، ويترجم كل بناء اجتماعي عقلائيته في إطار مؤسسي تغلفه فكريتي الايديولوجيا واليوتوبيا باعتبارهما بنية فكرية تاريخية كلية ، وقد تطرق إلى مثل هذا الطرح العديد من علماء الاجتماع أمثال ماكس فيبر Max Weber (1864-1920) و كارل ماركس Karl Marx (1818-1883) وإيميل دوركايم Emille Durkheim (1858-1917)، وحتى توماس كوهن Thomas Kuhn (1922-1996) الذي أخرج هذه الفكرة إلى العلن من خلال مشروعه المتمثل في البراديغم المعرفي ، غير أن أعمال مانهايم تشهد له بتقريبه الفكر الاجتماعي في شكل عقلانية مؤسسية، وهو ما يدفعنا لطرح الإشكالية التالية : كيف وظف كارل مانهايم مفهوم العقلانية المؤسسية على ضوء الايديولوجيا الكلية ؟ وهل يمكن تجاوز جدلية عقلانية الفرد والمجتمع وتبرير دورهما في إنتاج المعرفة الاجتماعية وترشيدها ؟ وهل يمكن تبرير الايديولوجيا باعتبارها بنية كلية ذات طابع مؤسسي في ظل علم الاجتماع المعرفي ؟

أولا : عقلنة الفرد والمجتمع في ترشيد المعرفة:

إن مفهوم المعرفة لا يكتمل في نظر كارل مانهايم إلا إذا تغلغلنا داخل العناصر البنائية التي تشكل البناء الاجتماعي، ذلك أن المعرفة الاجتماعية من بين المفاهيم الاستمولوجية المعاصرة، التي تشير إلى إعادة بناء الفكر

الاجتماعي ، حيث يحاول كارل مانهايم تقديم بعد معرفي يؤكد من خلاله علاقة المعرفة بالوجود الاجتماعي الذي تنتمي إليه متجاوزا به تباين النظريات الاجتماعية القديمة والتي حددها في رؤيتين متباينتين هما: الرؤية الأولى تعطي الأولوية لعقل جمعي يكون فيه فكر الفرد تابعا للمجتمع ، أما الرؤية الثانية فتعطي الأولوية للفرد باعتباره المنتج والفاعل داخل العملية الاجتماعية ، إذ لا مناص في نظر مانهايم من إعادة مراجعة فكرة العقل الجمعي الذي كثيرا ما أسيء فهمه بإقصاء دور الفرد المبدع داخل المجتمع ، حيث يؤكد على أنه «...لا يوجد كيان ميتافيزيقي كعقل الجماعة يتجاوز الأفراد ويفكر فوق رؤوسهم بحيث لا يفعل الأفراد شيئا سوى تكرار أفكاره»¹. بمعنى أن العقلانية التي رسمتها نظرية العقل الجمعي تقصي دور الفرد داخل البناء الاجتماعي كونه خاضع لحتمية قهرية تطمس وجوده الفكري ، وهو ما يعيق تقدم المعرفة.

ولا يفهم من هذا الموقف أن مانهايم يريد طمس العوامل الاجتماعية داخل القدرات الفردية الخاصة ، بقدر ما يحاول التركيب بين الرؤيتين السابقتين ، إذ مع ذلك «...فإننا نخطئ إذا استنتجنا من هذا أن أصل الأفكار والمشاعر التي تحرك الفرد موجودة في الفرد وحده ، أو أنه يمكن شرح تلك الأفكار والمشاعر على أساس خبرته الخاصة بالحياة فقط»². فالعقل الجمعي الدوركايمي ترجم الكلية الاجتماعية لكنه أبقى المعرفة ساكنة وبعيدة عن كل تحول داخل البنية العامة للنسق المعرفي الذي تمثله الفئة الاجتماعية المعنية بالدراسة.

وتاريخ علم الاجتماع يشهد على أن إيميل دوركايم قد برهن على عقل جمعي يعلو فوق العقول الفردية ، كون القاعدة الأخلاقية العامة مثلا تقتضي أن يكون الفرد ذاته تابعا لعادات وتقاليد وفكر المنطق الجمعي الذي ينتمي إليه الأفراد ، لأنهم خاضعون لحتمية اجتماعية تحيل إلى نظام كلي

على شكل عقل جمعي يحوى جميع العقول الفردية ويمدهم بجميع القواعد التي يجب عليهم ممارستها بفكرهم بناء عليها³ ، وقد أكد إميل دوركايم عن ذلك بقوله : «... إذا كانت هناك قاعدة للسلوك لا شك في صفتها الأخلاقية ، فهي القاعدة التي تأمرنا بأن نحقق في ذاتنا السمات الأساسية للنموذج الجمعي»⁴ . لكن إذا عدنا إلى موقف كارل مانهايم سنجد أنه يرفض مفهوم العقل الجمعي ، لأنه يفتقر للديناميكية التي تحافظ على نمو الفكر ومواكبته لمتطلبات العصر ، وهو بذلك يمهد لفكرة العلائقية التي تعتبر مفهوما مركزيا داخل علم الاجتماع المعرفي ، ولا يتم ذلك إلا إذا ساهم الوعي الفردي في بناء براديغم معرفي عاكسا تحولاته الإبداعية داخل البنية الاجتماعية التي يسميها مانهايم بالإيديولوجيا الكلية والتي سنتطرق إليها في العناصر اللاحقة ، وهو بذلك يعبر عن النخبة المتحررة فكريا ، التي يوظفها توماس كوهن في أعماله كهيئة علمية داخل البراديغم المعرفي موازاة مع مفهوم العقلانية المؤسسية.

وقد تطور مفهوم العقلانية المؤسسية عند كارل مانهايم بالتواصل مع الأفكار الماركسية عن طريق تشاركه مع جورج لوكاش (George Lukacs) (1885-1981) بدراسة تاريخ الإيديولوجيا ، فاعتبرها مانهايم نظاما فكريا ، ينطلق في بناء النسق المعرفي من الوجود الاجتماعي الذي يقدم لها الحقيقة عن الوجود الاجتماعي الذي تمثله⁵ . ذلك أن مانهايم يؤكد صحة الأفكار كونها وليدة البيئة الاجتماعية بتحولاتها الفردية والجماعية باعتبارهما بنيات انسانية واعية تصب بفكرها الوظيفي داخل النسق الفكري لعقلانية الإيديولوجيا الكلية.

والعقلانية باقترانها مع فكرة المؤسسة إنما تشير إلى التأسيس والمنهجية والتثقيف، وقد استعمل هذا المصطلح لدى العديد من علماء الاجتماع أمثال

ماكس فيبر، وإيميل دوركايم، مشيرين بذلك إلى مفاهيم التنظيم الشامل للمجتمع وتقسيم المهام، وغيرها من النظريات الاجتماعية في هذا السياق⁶. والنقد الذي وجهه كارل مانهايم للعقل الجمعي الدوركايمي على أنه عقل جمعي يمكن إسقاطه على نظرية الصراع الطبقي لكارل ماركس، حيث نجده ينتهج عقلا جمعيا ماركسيا جاعلا الفرد خاضعا لجمعية الجماعة البروليتارية كجمعية تاريخية، وبالتالي تذوب فعالية الفرد هنا باسم الجماعة، ولا يفهم من موقف كارل مانهايم أنه يرفض فعالية الجماعة وإنما يحاول انطلاقا من منهجه الجديد التوفيق بين الاتجاهين لتصبح مبادئهما متكاملة من حيث الوظيفة العامة بالحفاظ على تحولتهما داخل البراديغم المعرفي الذي يرتسم داخل العقلانية المؤسسية المانهيمية، وسنتطرق إلى فكرة أشمل من فعالية الفرد والجماعة إلى جدلية الإيديولوجيا الجزئية والكلية داخل علم الاجتماع المعرفي.

وإذا تكلمنا على إيميل دوركايم لابد لنا من الإشارة إلى ماكس فيبر الذي أكد على مفهوم العقلانية بمنظورها المؤسسي الفردي، ويشير عالم الاجتماع الأمريكي أنتوني غدنز Anthony Giddens (1938-؟) إلى مفهوم ماكس فيبر للمجتمع على أنه بنية تقوم على الفعل الذي يتشكل كتبادل معقد بين الأفعال الاجتماعية⁷. حيث أن الفعل حسب ماكس فيبر هو السلوك الإنساني الفردي، إذ أن العلاقات القائمة بين أفعال الأفراد تؤثر على الطابع العام للمجتمع وتحدده إما بالإيجاب أو بالسلب، وقد عبر ماكس فيبر عن عقلانيته الفردية بقوله: «...يجب أن يكون الفعل الاجتماعي ذلك الفعل الذي يتبع في معناه المقصود من قبل فاعله أو فاعلية سلوك أفراد آخرين ويتوجه في تتابعه حسب ذلك»⁸. ومن ثم كانت أطروحة ماكس فيبر في علم الاجتماع عبارة عن أطروحة مبنية على تأويل وتفسير السلوك الإنساني في مقابل الأطروحات المنافسة الأخرى، إذ أكد مانهايم على أنها عبارة عن نظرة جديدة

انبثقت من التحليل التفسيري للتاريخ.⁹ والنزعة الفردية لفيبر إنما تحاول تفسير أفعال الناس التي تعكس الفكر الاجتماعي ذا الأصول الذهنية ، غير أنها تعرضت لانتقادات أهمها أنها خالفت التقليد السوسيولوجي القائل بأن الفرد تابع للمجتمع وليس العكس.¹⁰ وعقلانية ماكس فيبر عبارة عن عقلانية مؤسسية فردية معارضة للتيار الكلي الذي دافع عنه دوركايم، وبالتالي كانت الأولوية الاجتماعية التي دافع عنها مؤسسوا علم الاجتماع الأوائل قد خرقها المنهجية الفيبرية مطلع القرن العشرين بجعل الفرد موضوع علم الاجتماع¹¹ والعقلانية المؤسسية عند كارل مانهايم تنبثق من التأليف بين رؤيتين فكريتين عايشهما في ألمانيا ، حيث يحاول التوفيق بينهما داخل عقلانية الايديولوجيا الكلية التي تحمل بداخلها الرؤيتين معا، وهما المنظور الماركسي والفيبري وفق رؤية جديدة، والتي مفادها أن حامل الفكر غير محدد في طبقة أو فئة بعينها ، بل يبقى على إطلاقيته في جماعات معينة قائمة على أسلوب خاص بها ومتماشية مع مركزها الاجتماعي ، لهذا نجد أن منهج سوسيولوجيا المعرفة المانهايمي يتميز بصفيتين هما:الصفة الأولى وهي أن الفرد مجرد مساهم فقط داخل مجتمع ما بمعنى أنه «...يساهم في جعل الفكر يتقدم على ما أوصله إليه الآخرون من قبله»¹² أي أنه يعيد مراجعة تراثه الفكري الذي ورثه عن أسلافه ، من خلال التربية وذلك بالنقل والتعلم ، كما أن الفرد يمتاز بحرية الفكر التي تمكنه من المساهمة في التقدم السوسيولوجي وبناء الأفق الحضاري والتاريخي الذي يعكس به تطلعات الأفراد الآخرين داخل مجتمعه عن طريق التعاون الفكري المبني على التواصل الثقافي مع الآخرين.

أما الصفة الثانية فإنها ترى أنه « لا يفصل أنماط الفكر الموجودة بشكل مادي عن سياق العمل الجماعي الذي من خلاله نكتشف العالم بمعنى عقلي لأول مرة»¹³ بمعنى أن الواقع الاجتماعي هو من يمدنا بالمعرفة ، ويسمح للعالم

الخارجي بأن يتجلى لنا ، لكي نستطيع التكيف معه ، وبناء عقلانية عامة ومشاركة نحيها عن طريق الممارسة والخبرة.

وفي السياق ذاته نجد توماس كوهن الذي يقترب بعقلانيته المؤسسية من عقلانية كارل مانهايم للمجتمع ، ذلك أن البراديغم المعرفي يتأسس على ضوء الجماعة العلمية التي يتحد أفرادها معا في رسم النظرة الشاملة للعالم بمساهماتهم في سبيل تقدم العلم ، حيث يعبر توماس كوهن عن هذه الفكرة في كتابه "بنية الثورات العلمية" بقوله : «...أن العلم لا يقوم ولا يتغير بواسطة فرد بحد ذاته ، بل بواسطة جماعة متحدة من العلماء ، أي مجموعة من العلماء مشتركين بتقاليد وقواعد واحدة مستمدة من نظرة واحدة إلى العالم»¹⁴.

والسياق نفسه يسلكه مانهايم عندما يؤكد أن الفكر مرتبط بوضعه الاجتماعي من حيث وظيفته على أرض الواقع ، كنشاط اجتماعي متكامل بين المساهمة الفردية والنشاط الاجتماعي في كليته ، فكل مجتمع رؤيته الشاملة للعالم بحيث تنبثق المفاهيم والآراء والأفكار الاجتماعية المختلفة بحسب سياقها الخاص والمقترن بالنشاط الاجتماعي ، حيث يؤكد مانهايم على ذلك بقوله:«...وطبقا للسياق الخاص بالنشاط الجماعي الذي يشتركون فيه يميل الناس دائما إلى رؤية العالم المحيط بهم رؤية مختلفة»¹⁵. وقد كان السياق العام لفلسفة كارل مانهايم الاجتماعية قائما على ديناميكية الفكر المرتبط بالعلاقة الجدلية بين بنيات المجتمع المتصارعة ، من حيث علاقة التأثير والتأثير الحاصلة بين الأفكار والواقع الاجتماعي ، إذ تتحول الأفكار وتتجسد في أرض الواقع إلى أشكال ممثلة في الإيديولوجيا واليوتوبيا.¹⁶ بمعنى أن تحولات الفكر الاجتماعي مرهونة بنتيجة العلاقة البنائية بين الفكر والوجود الاجتماعي الذي يمارس كفكر إيديولوجي أو يوتوبي بحسب فعالية الفئات المتحررة فكريا التي تحمل وتنتج المعرفة وتعكسها كرؤية شاملة للعالم.

وقد علق ارنست مانهايم Ernest Manheim (1900-2002) عن المنهجية الاجتماعية لكارل مانهايم بأنها منهجية تبحث في مجملها عن دراسة الأفكار ووظائفها بناء لما يحتويه المجتمع، من البذور الثورية للأفكار التي كانت مطروحة بقابلية التطبيق واستكشاف العلاقة القائمة بين التفكير والمحيط الاجتماعي.¹⁷ وهذه الرؤية يشترك فيها الناس كمساهمين وفق قدراتهم الفردية وبحسب العوامل الاجتماعية التي يعيشون تحت تأثيرها، بهدف تشكيل فلسفة اجتماعية معرفية مشتركة ومعاصرة تطبع في الأخير الرؤية الكلية للمجتمع.

ثانيا: إبيستمية الايديولوجيا :

يعتبر التحليل الايديولوجي سلاحا بيد الفئات والطبقات الاجتماعية المتصارعة حول إثبات ذاتيتها ضد الذوات المضادة في صراعها من أجل الكشف عن الزيف الايديولوجي في سبيل تجسيد الحقيقة التي يراها كل طرف من منظوره الفكري الخاص ، وهذا التقييم يندرج ضمن الايديولوجيا الجزئية لأنه لا يفضح إلا جزءا فقط من أقوال الخصوم على شكل صراع فكري حتم على كارل مانهايم التعمق في المنظومة التداولية للفكر الماركسي تجاه السجال الايديولوجي ، معتقدا بضرورة التمييز بين مفهومين للإيديولوجيا هما الكلي والجزئي.¹⁸ وهذا التمييز إنما كان اكتشافا جديدا لما طبق المنهجية السوسيوتاريخية على تاريخ الفكر الأوربي ليكتشف مدلولات ومفاهيم ومعاني مختلفة مبنية على الموازنة بين المفهوم الجزئي للإيديولوجيا والكلي لها ، فقام بمقارنة كليهما داخل علم الاجتماع المعرفي.¹⁹ ولجوؤه إلى معجم الجزئي والكلي حسب بول ريكور Paul Ricœur (1913-2005) ما هو إلا ترجمة لاعتقاده بأن الإيديولوجيا وصلت إلى مرحلة إلزامية للانتقال من التداول الماركسي التعسفي لها ، والانعطاف نحو مرحلة جديدة تكون أكثر وضوحا ، لتتجلى فيها الإيديولوجيا كبنية كلية للعقل تعكس

رؤية معاصرة للعالم، ويفلت فيها العقل الأوربي من التشويه الماركسي المبني على الصراع الطبقي كبنية جزئية²⁰. وهنا يفرق مانهايم بين المفهوم الجزئي والمفهوم الكلي للإيديولوجيا:

1. المفهوم الجزئي للإيديولوجيا:

يظهر التصور الجزئي للإيديولوجيا عندما يتخذ طرفا ما موقفا شكيا وإرتيابيا تجاه الأفكار والتصورات التي يتقدم بها خصمه، منظورا إليها على أنها تموهيات واعية ومقصودة تخفي بين طياتها الطبيعة الحقيقية لوضع جزئي لن يكون الاعتراف بحقيقته متفقا مع مصالح هذا الخصم، فأراء الخصم عبارة عن وعي زائف مترجم على شكل أكاذيب و تموهيات ومحاولات لخداع الخصوم.²¹ وقد انطلق مانهايم في نقده للإيديولوجيا باعتبارها موضوعا لعلم الاجتماع المعرفي، من الناحية الاستمولوجية على اعتبار أنها تترجم الرؤية الشاملة للعالم آخذا إياها كنظريات علمية ورؤى فكرية، ومعتقدات دينية و أفكار أسطورية تصب في وعاء اجتماعي كلي، أما التحديد الجزئي للإيديولوجيا فيندرج ضمن التقليد الماركسي المناقض للعلم والتفكير الاجتماعي.²²

والتصور الجزئي في عمومته يندرج ضمن المستوى النفسي للأفراد، وبالتالي فهو لا يعدو أن يكون سوى تعبير عن آراء ذاتية خارجة عن سياق الجماعة، وكمثال على ذلك ما نجده في تعصب بعض أطراف الأحزاب السياسية بقيامهم بسلوكات ذاتية نابعة من شعورهم النفسي، دون التقيد بالمرجعية الكلية للحزب، وهذا ما يجعل المفهوم الجزئي للإيديولوجيا يختلف عن مدلولها الكلي.

وزيادة على ذلك لا يغطي التصور الجزئي للإيديولوجيا إلا جزءا من أقوال الخصم، لأنه يقوم بتحليل الأفكار على المستوى السيكلوجي، وعلامة ذلك أن كل طرف يقوم بالشك في صحة أقوال الطرف الآخر بهدف دحض مصادر

الخطأ واستئصاله بالرجوع إلى معاييرها التي يدعيها²³. ومرد ذلك أن كلا الطرفين يسعيان إلى تدمير أقاويل بعضهما، لأن الخطاب الذي يبثانه لا يمثل سوى جزء من شعورهم المؤول، وهذا الاتجاه بعيد كل البعد عن الموضوعية ويعود سبب عزوف مانهايم استخدام المفهوم الجزئي للإيديولوجيا بالرغم من دلالاته الكاشفة عن فكر الفرد، لمدى تعبير هذا المفهوم الجزئي على المصلحة الذاتية من جهة ومدلولها الماركسي من جهة أخرى، ما يضطره إلى الاستعانة بالمفهوم الكلي للإيديولوجيا أو المنظورية كدلالة إيجابية.²⁴ وما نفهمه أيضا أن مانهايم يحاول تبرير الإيديولوجيا داخل السياق الموضوعي باعتبارها ميدانا خصبا داخل العلوم الاجتماعية التي يحاول تأكيدها من خلال علم الاجتماع المعرفي كميدان ابستموتجريبي يعكس من خلالها مشروعه المؤسسي.

2. المفهوم الكلي للإيديولوجيا:

يؤكد كارل مانهايم على أن المفهوم الكلي للإيديولوجيا أوسع من المفهوم الجزئي لها، لأنه مرتبط بإيديولوجية عصر أو جماعة تاريخية اجتماعية محددة، وبالتالي يكون هدف هذا التحديد المفاهيمي هو توضيح سمات وتركيب البناء الكلي لعقلية عصر ما أو جماعة معينة، عكس ما نجده في الإيديولوجية الجزئية²⁵. بمعنى أن الإيديولوجيا الكلية هي البناء الكلي للعقلية الجمعية التي تمثلها طبقة، أو فئة اجتماعية في عصر ما، بالتالي تعكس براديجم ديناميكية ذات رؤية شاملة للعالم، تكون قاعدته عبارة عن عقلانية مؤسسية تصب جميع تحولاتها داخل بنية كلية تجمع جميع شرائح المجتمع داخلها. والتصور الكلي للإيديولوجيا يركز في أساسه على الجانب العقلي والفكري من حيث نسب خطاها الكلي إلى حقبة تاريخية معينة، لأن كل فكرة يجب أن تتعلق بنسق فكري ونمط خبراتي مرتبط بالحياة الاجتماعية والتاريخية التي تحياها كل جماعة في أي عصر.²⁶ ويعتبر المفهوم الكلي للإيديولوجيا أو

المنظورية كما يفضل مانهايم تسميته صميم موضوع علم الاجتماع المعرفي لأنه لا يدل على المفهوم الجزئي للإيديولوجيا فقط بل يقدم الفكر كنموذج كلي لكل حقبة تاريخية محتواة داخل بيئة اجتماعية²⁷.

وكارل مانهايم يحاول البرهنة على معيار المعقولة الدقيق بمدلوله الكلي الذي استقاه من هيغل Hegel، محاولاً تحديد رؤية شاملة للعالم متجهة نحو تأسيس منظور إبستمولوجي متميز عن المنظور الماركسي المقيد بنظرية الإيديولوجيا المتعددة المعاني²⁸. وهكذا يحاول مانهايم الخروج من الزيف الإيديولوجي إلى الصواب الإبستمولوجي الواضح، عاكساً بذلك رؤية كونية سوسيو-تاريخية.

ويضبط مانهايم تصوره الكلي للإيديولوجيا من خلال إمكانية التحليل الوظيفي الشكلي دون الإشارة إلى الدوافع ، ما يعطيه أولوية الابتعاد عن الوصف الذاتي للاختلافات البنيوية في العقول الاجتماعية المختلفة نحو الوصف الموضوعي ، وبالتالي سيكون بالضرورة إدراك التطابق بين الوضع الاجتماعي والمنظور المرتبط به تحت معادلة الترابط الوظيفي، من أجل الخروج من نظرية الإيديولوجيا إلى سوسيولوجيا المعرفة التي تهتم بالسياق المؤسسي الكلي للفكر الاجتماعي ، وما يحويه من مكتسبات وخبرات اجتماعية ، حيث يبعدنا عن التحليل السببي إلى تحليل وظيفي بهدف «...تمييز الوضع الكلي، وهكذا يقوم اتجاه لاستبدال سيكولوجيا الاهتمامات بتحليل التطابق بين الوضع الذي نريد التعرف عليه وأشكال المعرفة»²⁹.

فانبعاث الكلية داخل الإيديولوجيا له جذوره الهيغلية والماركسية ، غير أنهما يختلفان في نقطة الانطلاق ، لمدى مثالية الأول، وواقعية الثاني، إلا أن أساس معالجة الإيديولوجيا تكمن من خلال المقولة الكلية التي تعكس الحقيقة كحلقة حاسمة ، تمكن الباحث في هذا الميدان من الجزم أن الوجود الاجتماعي لا يتوقف على النمط الجزئي ، وإنما يتوقف على كونية

العالم العقلية التي تبرز لنا كلية البنية الفوقية للفكر كعلاقة وظيفية داخل الوجود الاجتماعي.³⁰ وقد تعرض مانهايم لعدة انتقادات أهمها أن نظريته السوسيولوجية عبارة عن نقد إيديولوجي لا غير، ويتمثل هذا النقد الايديولوجي في أنه يبحث عن التشويه الذي يعكسه الحراك السياسي من خلال تحديد الواقع الاجتماعي ، كما يساهم في تطوير مفهوم الايديولوجيا أكثر منه علم مختص في علم الاجتماع المعرفي.³¹

ورغم التحليل الذي قام به مانهايم بنقده لتاريخ الإيديولوجيا وتقسيمها إلى إيديولوجيا جزئية وإيديولوجيا كلية وتمييزه بينهما في الاستخدام ، إلا أنه قد أخطأ بهذا التقسيم كون الإيديولوجيا بمعنيها الكلي والجزئي ، لا يمكن فصلهما بمجرد ارتباط الجانب العقلي بالتصور الكلي والجانب النفسي بالتصور الجزئي ، لأن الفرد لا ينطلق بإيديولوجيته تجاه الآخر إلا من خلال مرجعية تاريخية واجتماعية.³² كما أن مفهومي الايديولوجيا الجزئي والكلي إنما ينظران إلى الأفكار من ناحية تحديداتها اللاشعورية، كما يفترضان شروطا تتجاوز وتتحكم في المعارف وتحددها كحتمية اجتماعية. لهذا كان الهدف من وراء هذا التمييز محاولة التخلص من المفهوم الجزئي للإيديولوجيا ، والذي يعتمد على التأكيدات السيكلوجية القائمة على الأخطاء النفسية والتي تسمى بنظرية المصالح الرافضة لإمكانية إلحاق المعرفة بالبعد التاريخي الاجتماعي.³³

لكن رغم ذلك لابد من التمييز بين استخدامات الإيديولوجيا الجزئية والكلية ، لأنه لابد من الفصل بين أنماط المعرفة وتصنيفها بحسب الميدان الذي تندرج ضمنه ، كما يمكن أن نترك مهمة هذا التصنيف إلى علم الاجتماع المعرفي.

ثالثاً: الانتقال من عقلنة الايديولوجيا إلى علم الاجتماع المعرفي:

إن العملية الأركيولوجية التي يقوم بها كارل مانهايم من خلال الاهتمام بتاريخ الأفكار مكنته من الوصول إلى حد قريب من تحديد العلاقة بين نظرية الايديولوجيا وعلم الاجتماع المعرفي، وهو بذلك يعيد طرح فكرة علاقة العلم بالايديولوجيا، بصيغة تكون حداثية مقارنة بالمحاولة الماركسية القديمة، ذلك أنه يحاول تجاوز مثل هذه المفارقة لكي يميز بين الخطاب العلمي الموضوعي وبين الوعي الزائف.

لكن إذا انطلقنا مع مانهايم من ناحية القرابة التاريخية بين نظرية الايديولوجيا وعلم الاجتماع المعرفي سنجد تواسلاً بينهما باعتبارهما مجالين اجتماعيين، لكن من ناحية أخرى يوجد اختلاف بينهما على شكل قطيعة ابستمولوجية، فنظرية الايديولوجيا ذات صلة بالايديولوجيا كمفهوم، ومن حيث اهتمام الأولى بمهمة كشف الأقنعة التي تخفي وراءها التزييف والخداع الممارس في أرض الواقع من طرف الجماعات البشرية وبالخصوص الأحزاب السياسية، لأن أقطابها المتصارعة تحاول النيل من بعضها البعض، أما علم الاجتماع المعرفي فيأخذ على عاتقه تحليل طرق تفكير الجماعات البشرية المختلفة، بغض النظر عن أوضاعهم الاجتماعية، ذلك أن كل وضع اجتماعي وتاريخي سيكشف عن شكل ما من أشكال البنية الفكرية المتصلة بها.³⁴

ويتجلى الفرق بين نظرية الايديولوجيا وعلم الاجتماع المعرفي في أن الأولى تتناول قضايا جزئية متعلقة بالجانب الذاتي والنفسي للأحزاب المتصارعة أما علم الاجتماع المعرفي فإنه يعالج القضايا الكلية المتعلقة بالجانب الموضوعي والفكري للجماعات البشرية من أجل تشخيص الوضع النهائي لها.

والنظرة الإيديولوجية القديمة كانت لا تفرق بين الاستعمال الكلي والجزئي لها، لهذا كان لزاما على مانهايم أن ينتقل بالمفهوم الضيق للإيديولوجيا إلى حقل معرفي موضوعي بعيد عن الصراعات الزائفة إلى ميدان معرفي جديد يكشف عن الوعي الصادق الذي يصحح البنية الفكرية الاجتماعية ، أي أنه يهتم بالبنية العقلية الكلية التي أهملتها نظرية الإيديولوجيا ، ليتحدد بذلك ميدان سوسيولوجيا المعرفة بأنها «...لا تنتقد الفكر على مستوى هذه التأكيدات ذاتها التي قد تنطوي على خداع وتمويه ، ولكنها تتفحص هذه التأكيدات على المستوى البنيوي أو الفكري الذي ترى أنه ليس بالضرورة واحد لدى كل الناس، وأنه يتيح للشيء نفسه أن يتخذ أشكالاً ومظاهر مختلفة خلال مسيرة التطور التاريخي»³⁵.و بذلك يتجاوز الطرح المانهيمي الطرح الماركسي القائم على كشف الزيف ، إلى طرح جديد يتمثل في ترتيب الأفكار وتصنيفها بموضوعية من أجل تحديد البنية الفكرية الأحق أن تطرح على الساحة العلمية وتجاوز كل فكر فارغ بعيد عن الموضوعية.

وعلم الاجتماع المعرفي المانهيمي حسب بول ريكور يستطيع أن يتغلب على المفارقات الإيديولوجية إلى وعي صادق ، ووضع كل إيديولوجيا في مجالها الصحيح ، غير أن مانهايم قد أخفق لأن سوسيولوجيا المعرفة لا يمكن أن تنجح في تحقيق الموضوعية باعتبارها علما، لأنها تتطلب بمفهوم ريكور أن يكون موقع عالم الاجتماع نوعا من نقطة العدم ، أي أن العالم لا بد أن يوفق بين كونه دارسا ومدرسا في الوقت نفسه ، وهذا التوفيق لا بد أن يكون خارج الموضوع المدرس لأنه مراقب للظاهرة الاجتماعية ، ما يجعل مانهايم في الأخير قد وقع في أصدق إخفاقاته المنهجية³⁶. بمعنى أن بول ريكور قد وضع مانهايم أمام إمكانية تحقيق الموضوعية داخل علم

الاجتماع المعرفي من عدمها على محك الفشل ، ذلك أن معيار تحقيق مانهايم لمشروعه الاستمولوجي يتطلب الإجابة عن سؤال ريكور المنهجي. ويمكن أن ننظر إلى الايديولوجيا على أنها ليست علما ، كما أنها مرحلة قبل علمية كما أشار إلى ذلك غاستون باشلار (G.Bachelard 1884-1962)، غير أن هذه المرحلة يجب تجاوزها من خلال القطيعة الاستمولوجية .³⁷ وهذا هو الدور الذي تقوم به اليوتوبيا من خلال ثورتها على الايديولوجيا في سياقهما السجالي إذ يعتبران وعيا زائفا بالنظر إلى درجة عدم تحققهما في أرض الواقع كفكر واضح وموثوق فيه من طرف البنية الاجتماعية الكلية ، ذلك أن الخبرة التي تعبر عن فاعليتهما العملية في أرض الواقع مشوهة على الدوام .³⁸

وحقيقة الواقع تؤكد ذلك الصراع المترجم على الساحة السياسية ، باصطدام جميع التيارات الفكرية فيما بينها من أجل السيطرة على الرؤية الشاملة للعالم واحتواءها ، لكن هذا الفعل لا يساعد على استقرارهما في بيئة واحدة تحتاج إلى الثبات والتعايش ، ما يستوجب على جميع فئات المجتمع الواحدة أن تتعلم النقاش الأكاديمي التواصلي من أجل تجاوز الطرح الماركسي القديم والانتقال من فكرة الوعي الزائف إلى فكرة احترام وعي الآخر وتعديله من أجل الحفاظ على أصالة البنية الفكرية العامة.

وهدف مانهايم هو نشدان الموضوعية ومحاولة بلوغها بكل شفافية ، وتجاوز العائق الذاتي الذي يبقينا نفوس في نظرية الايديولوجيا ، كما أن علم الاجتماع المعرفي المانهيمي يحمل على عاتقه تقرير الحدود التي تؤثر فيها البنى الاجتماعية على بنية التأكيدات ، وهذا ما سيساعده على تجاوز استعمال كلمة الايديولوجيا بسبب مدلولها الأخلاقي، وهنا يلجأ إلى فكرة منظور المفكرويعني بكلمة منظور «...الأسلوب الكلي للشخص المفكر في إدراك الأشياء كما يحددها ويقررها وضعه التاريخي والاجتماعي»³⁹. مرجحا

الأمر إلى إمكانية تحقيق الموضوعية والرد على الذين انتقدوا مشروعه
الابستمولوجي .

لكن رغم محاولته معالجة المشكل الايديولوجي المبني على أساس
الصراع الفكري بين الطبقات الاجتماعية المختلفة بين محافظ على الوضع
وبين متطلع نحو المستقبل ، فإن علم الاجتماع المعرفي هو السبيل الذي
مكنه من تجاوز الصراعات الفكرية والكشف عن أصول الزيف الفكري
الاجتماعي والتاريخي وتحديد الفكر الصحيح ، غير أن بول ريكور يعتبر أن
المحاولة المانهامية تعتبر ضعيفة ، لأن موقع عالم الاجتماع في هذا الحقل
العلمي الجديد لا بد وأن يلتزم أشد الالتزام بالموضوعية وأن يبتعد عن
الذاتية.⁴⁰ كما أن قوة وضعف النظرية الاجتماعية يتحدد بمدى متانة
العلاقة الموجودة بينها وبين الايديولوجيا ، أي أن القوة التي تعتمد عليها
النظرية الاجتماعية في فضح الايديولوجيا هي التي تثير قيمتها
الابستمولوجية ، ذلك أنه: «...ليس هناك مكان تبلغ فيه النظرية الاجتماعية
الوضع الاعتباري للعملية ، والذي سيحولها أن تستعمل بطريقة حاسمة
مصطلح القطيعة الابستمولوجية لتسجيل المسافة التي تفصلها عن
الايديولوجيا».⁴¹

ورغم هذا النقد ، فإن مانهايم يرى أن مهمة الباحث أمام وصف البنية
الفكرية للمجتمع ، من حيث تصنيفها إلى إيديولوجيا أو يوتوبيا ، سيشكل
بالفعل عائقا ابستمولوجيا للباحث من حيث موضوعية الطرح ، لهذا
يجب في هذه الحالة من اشتراكه مع مشاعر كل بنية فكرية يقوم
بتحديدها ، لأن درجة الواقعية التي يحددها مانهايم هي من تتحكم في
البنيتين الفكريتين اجتماعيا.⁴² ويدفع مانهايم بعلم الاجتماع المعرفي ويقدمه
كمنهجية ابستمولوجية تاريخية كفيلة بتمكين الباحث الاجتماعي من تجاوز
النقد الايديولوجي إلى البحث الموضوعي ويوضح ميدان علم الاجتماع

المعرفي في شكلين أساسيين هما: الشكل الأول: بحث تجريبي قائم على الوصف والتحليل البنيوي للأساليب التي تؤثر بها العلاقات الاجتماعية تأثيرا فعليا على الفكر. أما الشكل الثاني: فيكون فيه علم الاجتماع المعرفي تحقيقا في نظرية المعرفة وفلسفة العلوم ، من حيث معالجة العلاقة المتبادلة بين الوضع الاجتماعي والفكر ، لتحديد صحة المعرفة⁴³.

ويعتبر علم الاجتماع المعرفي المانهيمي من بين الإسهامات البارزة على الساحة الاستمولوجية، من حيث هو محاولة جديدة تترجم تأثير مانهايم بالايديولوجيا واليوتوبيا ، حيث يريد البرهنة على أن أنظمة الفكر تكتمل من خلال ثورتها المستمرة لتفترض في الأخير العلاقة التطابقية بين المعرفة والمجتمع ، بعيدا كل البعد عن الفكر الخاطئ وتوضيح البنية الفكرية على أنها أفكار صحيحة⁴⁴. كمعيار جديد للخروج من السجال الفكري الذي عانى منه عبر مسيرته الفكرية داخل أوروبا .

ويحاول أيضا أن يبلغ الموضوعية داخل العلوم الاجتماعية ، بعيدا عن النقد الايديولوجي باعتبارها منهجية تقوم على كشف الأقنعة فقط بالنظر إلى الأبعاد السياسية لها، أو بالأحرى أداة سياسية في يد الايديولوجيا ، أما المنهجية الجديدة التي ينشدها مانهايم إنما تهدف إلى كشف الأصول التاريخية والاجتماعية للفكر، ثم ضبط قيمته الاستمولوجية من خلال علاقته الفعلية بالمجتمع.

وعلم الاجتماع المعرفي يعتبر منهجية استيموسوسيولوجية معاصرة تستطيع أن تتخذ من الايديولوجيا واليوتوبيا موضوعات أساسية لمنطلقاتها المنهجية ، لأن الإطار العام الذي يعمل بداخله عالم الاجتماع يفرض عليه تبرير مقامه أمام موضوعية العلوم الاجتماعية ، من ناحية تحديد العلاقة بين المعرفة والمجتمع من جهة، وبين المعرفة وأصولها السوسيوتاريخية من

جهة أخرى كتحليل أركيولوجي يبرر مشكلة المعرفة التاريخية في ظل علاقتها بالخبرة الاجتماعية ومدى تأثير المعتقدات على ديناميكية الفكر.

خاتمة

من خلال التحليل السابق نخلص إلى أن كارل مانهايم حاول تبرير الايديولوجيا كعقلانية مؤسسية ذات بعد ابستمولوجي معاصر للعلوم الاجتماعية التي أضحت آخر العلوم ظهورا بتعبير أوغست كونت، ذلك أن الايديولوجيا بالمعنى المانهايمي لا تدل على مرحلة ما قبل علمية فقط بقدر ما تدل على نوع من براديغم معرفي ، يحوي بداخله جميع المنتجات الاجتماعية التي تعكس كليتها التاريخية كتحويلات بنائية جزئية في اطار الكل العام بمعناه المعرفي العقلاني في شكل مؤسساتي تكشف عنه ابستمولوجيا اجتماعية متمثلة في علم الاجتماع المعرفي الذي يتجلى كمبحث سوسيوتاريخي يعنى بجميع الأطر الاجتماعية على اختلاف مشاربها ، كما أن اليوتوبيا باعتبارها إيديولوجيا ثورية في إطارها الكلي تعتبر أيضا من بين المفاهيم الدالة على ترشيد مفهوم البنية الكلية للمعرفة الاجتماعية ببعثها من السياق الخيالي إلى السياق العملياتي السجالي مع الايديولوجيا باعتبارهما خبرة اجتماعية يساهمان في تقدم البراديغم المعرفي في سياقه المؤسساتي الكلي، و كارل مانهايم مهد الطريق لابستمولوجي أمام الباحثين المعاصرين في تأسيس ميدان علم اجتماع العلم بمفهومه المؤسساتي في الحقبة المعاصرة، لمدى تمكنه من تفكيك الإرث الماركسي للإيديولوجيا وتعويضه بفكر حداثي يعكس الأسس الابستمولوجية للإيديولوجيا الكلية باعتبارها نسقا للصراع الفكري الاجتماعي بمعناه الكلي ، وكموضوع خصب للعلوم الاجتماعية منظورا إليها على أنها آخر العلوم حداثة ، خصوصا وأنه تمكن إلى حد ما من إعادة تأسيس مفهوم الايديولوجيا الكلية على شكل عقلانية مؤسسية داخل منهجية على الاجتماع المعرفي ، وذلك بفضل

وحدة المناهج بين الاستمولوجيا وعلم الاجتماع في ظل تشابك المعارف والمشاكل البحثية للعلوم الاجتماعية ، ويدرس علم الاجتماع المعرفي الفكر الاجتماعي كنسق من العلاقات الوظيفية الموجودة بين الفكر والمجتمع باعتبارها براديفما معرفيا وليس مجرد ظواهر اجتماعية جامدة ، وهذا الانجاز مكن علم الاجتماع من توسيع أفقه للبحث في المجتمع العلمي بدلا من المجتمع المعرفي كحركة انتقالية معاصرة.

الهوامش:

- 1- كارل مانهايم: الإيديولوجيا و اليوتوبيا(مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة).ترجمة:محمد رجا الديري ، شركة المكتبات الكويتية، الكويت، ط 1، 1980، ص 84.
- 2 -المصدر نفسه، ص 84
- 3 -جلال شمس الدين : فلسفات العلوم، مؤسسة الثقافة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، (د.ط)، 2011.ص 314.
- 4 -إيميل دوركايم : في تقسيم العمل الاجتماعي ، ت:حافظ الجمالي، اللجنة اللبنانية للترجمة، منظمة الأونسكو، بيروت-لبنان، باريس، 1982.ص 446.
- 5 -جون سكوت: علم الاجتماع، المفاهيم الأساسية، ت:محمد عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط 1، بيروت، لبنان، 2009.ص 69.
- 6 -جيل فيريول:معجم مصطلحات علم الاجتماع، ت: أنسام محمد الأسعد، مراجعة:سام بركة، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2011 م. ص 112.
- 7-أنتوني غدنز:علم الاجتماع، ترجمة وتقديم:فايز الصباغ، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة ترجمان، بيروت، لبنان، ط 1، 2005. ص 71.
- 8 -ماكس فيبر:مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ت: صلاح هلال، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 2011. ص 29.
- 9- Karl Mannheim: Essays on the Sociology of culture, volum seven, Routledge and Kegan , 1st published, 1956. P75 .
- 10- فيليب راينو : ماكس فيبر ومفارقات العقل الحديث ، ترجمة وتقديم: محمد جديدي، منشورات الاختلاف، كلمة، الإمارات العربية المتحدة/أبوظبي، الجزائر، ط 1، 2009 م- 1430 هـ، ص 150.
- 11- المرجع نفسه، ص 147.
- 12- كارل مانهايم:الإيديولوجيا واليوتوبيا، المصدر السابق ، ص 85.
- 13- المصدر نفسه ، ص 84
- 14-توماس.س.كون: بنية الثورات العلمية، ت:حيدر حاج إسماعيل ، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، 2007. ص 09.
- 15- كارل مانهايم:الإيديولوجيا واليوتوبيا، ص 85.

- 16 -رضا سعادة: الفلسفة ومشكلات الإنسان(منافذ إلى الحقيقة والحرية والعدالة الاجتماعية) ، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ط1 ، 1990.ص 79.
- 17- Ernest Mannheim: introduction. see: Essays on The sociology of culture ;by Karl Mannheim. Op.cit. p 01.
- 18 -إبراهيم زكريا : مشكلة الفلسفة ، مشكلات فلسفية (4)، مصر، 1971، ص 247.
- 19-كارل مانهايم : الإيديولوجيا و اليوتوبيا ، المصدر السابق ، ص 129.
- 20-بول ريكور: محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا، ت:فلاح رحيم، تحرير وتقديم: جورج هتيلور، دار الكتاب الجديد المتحدة، دار الكتب الوطنية، بيروت /لبنان، بنغازي /ليبيا، ط 1 ، 2002، ص 238.
- 21-المصدر السابق نفسه ، ص 129.
- 22-Nicola Vulpe : Ideology,Epistemology,and work : A new evaluation of Karl Mannheim's third way. [On line]= ialnet.unirioja.es/descarga/articulo/97996.pdf. pp113-114.
- 23-كارل مانهايم: الإيديولوجيا و اليوتوبيا ، ص 130.
- 24- Nicola Vulpe : Ideology,Epistemology,and work Ibid. p115
- 25-المصدر نفسه ، ص 129 .
- 26-المصدر نفسه ، ص 130.
- 27-Nicola Vulpe : Ideology,Epistemology,and work P115.
- 28-لوسيان غولدمان وآخرون:البنوية التكوينية والنقد الأدبي، مراجعة ترجمة :محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط 2 ، 1986، ص 114.
- 29-كارل مانهايم: الإيديولوجيا و اليوتوبيا، ص ص 131.
- 30-Karl Mannheim :Essays on The Sociology of Knowledge. Translate: Paul Kekskemeti , Routledge and Kegan Paul LTD ,London and Becles ,1st Published , 1952.p 144.
- 31- عبد السلام بن عبد العالي:الميتافيزيقا، العلم والإيديولوجيا،دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت، ط 2. ص 50.
- 32- قباري إسماعيل: علم الاجتماع والإيديولوجيات، المكتب العربي الحديث للطباعة والنشر، الإسكندرية، (دط)، 1979.ص 09.
- 33- عبد السلام بن عبد العالي:الميتافيزيقا، العلم والإيديولوجيا ، ص ص 53-54.
- 34-كارل مانهايم: الإيديولوجيا واليوتوبيا ، ص 310.
- 35-المصدر نفسه، ص 310.

- 36- بول ريكور : محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا، ص 243.
- 37- عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والاشكاليات...من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1 ، 2006. ص 74.
- 38- كارل مانهايم: الإيديولوجيا واليوتوبيا ، ص 163.
- 39- المصدر نفسه، ص 311.
- 40- بول ريكور: محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا، ص 242.
- 41- بول ريكور: من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل، ت: محمد برادة، حسان بورقيبة، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ط1 ، 2001. ص ص 247-248.
- 42- كارل مانهايم: الإيديولوجيا واليوتوبيا ، ص 250.
- 43- المصدر نفسه، ص 311.
- 44 -Brayan.S.Turner: Classical Sociology, SAGE Publications LTD ,London, New Delhi ,1999.p 129.